

إخلاص الولد في صدق البيع

تأليف الأستاذ
مركز الأبحاث الإسلامية

طبع مطبعة عن نخبين مطبوعين

تجقيق وتعليق
محمد بركات

دار الكتاب



المكتبة التيمورية (ت)

١٠٢
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل الوفا بالوعدتين اوصاف الكرام وخلق الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقال سبحانه يمدح بذلك اسمعيل بن ابراهيم الخليل واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد يعني بالفضل المصدق للابراهيم والقتلة واللام على اصدق الخلق لانه ووفاهم بالوعدتاما اوعدهم به في الحديتاما ابلغه ورحمة الخاتمة الانام على الله واصحابه الذين كانت تبرزهم بخوة الكرام وتكرمهم حجة الانام وروى الله فقال حيث ان اذكر في ايد حسنة ووافد مسقنة فمحل الكرام وارباب المناصب الفخام واصحاب السيوف والاقلام واهل المروة والفتوة والابنام تتعلق بوفاء الوعد والعهدة ونحو الماد بذلك التقصير وقوله سبحانه واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد على سبيل الخلق والاختصاص واولي ذلك ميل نفوس الاخيار وسمي سميته انهم الوفاء في صدق البعاه قبا الله فصحته ونشأ في كتابه الكريم واذكر في الكتاب اسمعيل اذكر في كتاب الله الذي انزل عليك واول القرآن العزيز قصة اسمعيل خضر وما كان فيه من صدق المواعيد والنيات في كل موطن شديد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم للايمان بان تحصى الكلام ليس مما يتندي اليه بالادلة العقلية كما مورثك ما على كل طريقه الوحي الخاص به عليه السلام وفي الخطاب بروتونين لربنا عليه السلام بعض غريب الوفا بصدق الوعد من اسمعيل في الامور الشاقة حتى في الوعد بضع نفسه عليه الصلاة والسلام وناهيك بهذا الوفا من واسماعيل بن اسحاق الاغنيمة المنوعة من العرف وبقا لاسماعيل بالنون لغتان للعرب واسماعيل هذا قبل مواسم عيل من حرقيل عليها

مكتبة ليدن (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته التحفّيق

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإنّ رسالة «إخلاص الوداد في صدق الميعاد» للعلامة مرعي الكرمي رسالة لطيفة في مبنائها ومعناها، جمع فيها المصنّف فوائد حول قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وساق فيها بعض أقوال المفسّرين في الدلالة على أنّ صدق الوعد من صفات الأنبياء والأصفياء، كما أورد أخباراً في صدق الميعاد، مع طائفة من أقوال الشعراء، وكلام البلغاء، تحمّل القارئ على التزام المواعيد وإنجازها، كما أنه لم ينس ذكر أقوال الفقهاء، فكان جمعاً لطيفاً حسناً ينتفع منه أصناف القارئين.

هذا، وإن كان العلامة السخاوي رحمه الله (٩٠٣هـ) قد سبق في التصنيف في هذا الموضوع وصنّف «التماس السعد في الوفاء بالوعد» حيث جمع فيه الأحاديث والآثار في الوفاء بالوعد فأجاد وأفاد، إلا أنّ المصنّف العلامة الكرمي، قد أفرّد في هذه الرسالة أمر الوفاء بالوعد، مُعتمداً على النصّ القرآني الذي يدلّ على أنّ الوفاء خصلة من خصال الأنبياء والأصفياء، وقد خصّ بها سيّدنا إسماعيل عليه السلام.

واليوم تُنشر هذه الرسالة اللطيفة، ضمنَ «مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي» لتعمَّ الفائدةُ بها، لا سيَّما وأنَّه قد سبقَ نشرُها في (سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام)، وطُبِعَ بتحقيق الأستاذ خالد بن العربي مدرِّك، وقد اعتمدَ المحققُ الفاضل على نسخةٍ وحيدةٍ، وهي النسخةُ التيموريةُ، ولم يثبتَ المحققُ جميعَ ما فيها، بل بعضها، مع ما في أصله من أسقاطٍ كثيرةٍ وتصحيفاتٍ، وقد استدرَكنا ذلك في طبعتنا، ويُمكن القولُ إن هذه الرسالة تُنشرُ اليومَ بتمامها كاملةً، حيث اعتمدنا على نسخةٍ أخرى تامةٍ بفضل الله وتوفيقه.

وهاتانِ النُسختانِ هما:

الأولى: النسخةُ التيمورية في القاهرة، ورمزها (ت)، وهي نسخةٌ مقروءةٌ فيها سقطاتٌ كثيرةٌ كما تقدم، ولم يرد فيها قيدُ المؤلفِ أو النَّاسِخِ.
والثانية: نسخةٌ مكتبةٌ ليدن في هولندا، ورمزها (ل)، وهي نسخةٌ تامةٌ مقابلةٌ على خطِّ المؤلفِ، وقعَ الفراغُ من نسخِها سنة (١١٤٥هـ) بيد ناسِخِها محمَّدَ يعقوب المقدسي الحنبلي.

وفي الختام أسأَلُ اللهَ العليَّ العظيمَ أَنْ يتقبَّلَ مِنَّا عملَنا، ويجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وأنَّ يعفوَ عما وقعَ مِن زللٍ أو خطأ، إِنَّه تعالى سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعاءِ، وصَلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى مَرْعِي بنُ يوسفَ الحَنَبليِّ المَقْدِسيِّ لَطَفَ اللهُ

به آمين^(١):

الحمدُ لله الذي جَعَلَ الوفاءَ بِالوَعْدِ مِنْ أَوْصافِ الكِرَامِ، وأَخلاقِ الأنبياءِ عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، فقال سُبْحانَهُ يَمْدُحُ بِذلكَ إِسماعيلَ بنَ إبراهيمَ الإمامَ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] يعني بِالْفِعْلِ المُصَدِّقِ للكلامِ.

والصلاة والسلام على أَصْدَقِ الخَلْقِ كَلَاماً، وَأَوْفَاهُمْ بِالوَعْدِ زَمَاماً، وَأَعْلَاهُمْ بِالْمَجْدِ مقاماً^(٢)، المبعوثِ رَحْمَةً لِكافةِ الأنامِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذين كانت تَهْزُهُم نَخْوَةُ الكِرَامِ، وَتُحَرِّكُهُم حَمِيَّةُ الإسلامِ.

وبعد: فقد أَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَ فَوَائِدَ حَسَنَةً، وفرائدَ مُسْتَحْسَنَةً، تَمِيلُ إِلَيْهَا طِبَاعُ الكِرَامِ، وأربابُ المناصبِ الفِخَامِ، وأصحابُ السُّيُوفِ والأقلامِ، وأهلِ المروءَةِ والفتوةِ مِنَ الأنامِ، تَتَعَلَّقُ بِوَفَاءِ الوَعْدِ والعَهْدِ، وَنِعَمِ المَرادِ بِذلكَ القَصْدِ وقولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] على سَبِيلِ التَّلْخِصِ والاختصارِ، وإلى ذلكَ مَبْلُ نُفوسِ الأَخيارِ، وَسَمِّيَتْهُ:

(١) قوله: «لطف الله به آمين» من (ل).

(٢) في (ل): «في المجد».

«إخلاص الوداد في صدق الميعاد»

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَذْكُرِي الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: ٥٤] أي: أذكر في الكتاب الذي أنزل عليك - وهو القرآن العزيز - قصة إسماعيل وخبره، وما كان فيه من صدق المواعيد والثبات في كل موطن شديد.

والخطاب للنبي ﷺ للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى إليه بأدلة العقل كالأمور المشاهدة، بل إنما طريقة الوحي الخاص به عليه السلام، وفي الخطاب هز وتشويق لاستماع ما يذكّر بعده من غريب الوفاء بصدق الوعد من إسماعيل في الأمور الشاقة، حتى في الوعد بذبح نفسه عليه الصلاة والسلام، وناهيك بهذا الوفاء منه.

وإسماعيل من الأسماء الأعجمية الممنوعة من الصّرف، ويقال: إسماعين، بالنون، لغتان للعرب^(١).

وإسماعيل هذا قيل: هو إسماعيل بن حزقيل عليهما السلام. حكاة القرطبي في «تفسيره»^(٢).

والذي ذهب إليه جماهير العلماء والمفسرين: أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب، وابن إبراهيم خليل الرحمن عليهما الصلاة والسلام^(٣).

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] قال الإمام القرطبي في «تفسيره»: صدق الوعد محمود، وهو من أخلاق النبيين والمرسلين^(٤).

(١) انظر: «تاج العروس» (٢٩ / ٢٢٩).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٤).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٤).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥).

وَحَصَّ اللَّهُ تَعَالَى إِسْمَاعِيلَ بِذِكْرِهِ بِصِدْقِ الْوَعْدِ وَإِنْ كَانَ صِدْقُ الْوَعْدِ مَوْجُوداً فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تَشْرِيفاً لَهُ وَتَفْخِيماً لِسَانِهِ، وَلِأَنَّهُ الْمَشْهُورُ الْمُتَعَارَفُ مِنْ خِصَالِهِ ﷺ^(١).

وقال البيضاوي: ذَكَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمَشْهُورُ بِهِ، وَالْمَوْصُوفُ بِأَشْيَاءٍ فِي هَذَا الْبَابِ لَمْ تُعْهَدْ مِنْ غَيْرِهِ، وَنَاهِيكَ بِهِ أَنَّهُ وَعَدَ الصَّبْرَ عَلَى الذَّبْحِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فَوْفَى بَوَعْدِهِ^(٢).

وفي «النهر» تفسير الإمام أبي حيان: وَصِدْقُ وَعْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَتْ مِنْهُ مَوَاعِيدُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِلنَّاسِ فَوْفَى بِالْجَمِيعِ، فَلِذَلِكَ خُصَّ بِصِدْقِ الْوَعْدِ^(٣).

وفي «تفسير القرطبي»: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ: فَقِيلَ: لِأَنَّهُ وَعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِالصَّبْرِ عَلَى الذَّبْحِ فَصَبَرَ حَتَّى فَدَاهُ اللَّهُ^(٤) بِبِرْكَةِ صَبْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

وَفِي كَوْنِهِ هُوَ الذَّبِيحُ أَوْ إِسْحَاقُ خِلَافُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ.

وقيل: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعٍ، فَجَاءَ إِسْمَاعِيلُ وَانْتَظَرَ الرَّجُلَ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْيَوْمِ الْآخِرِ جَاءَ، فَقَالَ لَهُ: مَا زِلْتُ هُنَا فِي انْتِظَارِكَ مُنْذُ أَمْسٍ^(٥).

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٤).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤ / ١٣).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٧ / ٢٧٥).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«الكشاف» (٣ / ٢٣).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«المحرر الوجيز» (٤ / ٢١).

وقيل: انتظره ثلاثة أيام، وقد فعل مثله نبينا ﷺ قبل بعثه. ذكره النقاش^(١).

ورواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن أبي الحنفية، قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يُبعث وبقيت له بقية، فوعدته أن آتية في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت، فإذا هو عليه السلام في مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث^(٢).

وقيل: إن إسماعيل انتظر من وعده اثنين وعشرين يوماً. ذكره الماوردي^(٣).

وفي «تفسير الزمخشري» و«ابن عادل»: أنه عليه السلام انتظره سنة. وروى ذلك عن ابن عباس^(٤).

قلت: ولعل ذلك كان مع تعاظم مصالحه ومباشرة أسبابه، مع ملاحظة الانتظار والتطلب لمجيء من وعده.

وبالجُملة: فإسماعيل ﷺ لم يعد شيئاً إلا وفى به. قاله بعض المحققين.

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٢ / ٣٧٧).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«المحرر الوجيز» (٤ / ٢١). وليس هو عند الترمذي، وأخرجه أبو داود (٤٩٩٦) واللفظ له، والبيهقي في «السنن» (٢٠٨٣٥)، وابن حبان في «المجروحين» (٢ / ١٤٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢ / ٢٣٩)، وقال ابن حبان: عبد الكريم بن أبي المخارق كثير الوهم فاحش الخطأ. وقال ابن الجوزي: لا يصح. اهـ. قلت: لكن عبد الكريم هذا: هو ابن عبد الله ابن شقيق، كما ذكره البخاري في «تاريخه» (٤ / ٢٤٦)، وهو مجهول. لكن ابن الجوزي تابع ابن حبان في تعيينه، فلم يصححه، بل روى عبد الكريم بالكذب.

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«النكت والعيون» للماوردي (٣ / ٣٧٦)، ونسبه ليزيد الرقاشي.

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥)، و«الكشاف» (٣ / ٢٣)، و«اللباب» لابن عادل (١٣ / ٨٢).

قال القرطبي: وهذا قولٌ صحيحٌ، وهو الذي يفتضيه ظاهرُ الآية^(١).

وفي «تفسير ابنِ عادل»: سُئِلَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الرَّجُلِ يَعِدُّ صَاحِبَهُ مِيعَادًا إِلَى أَيِّ وَقْتٍ يَنْتَظِرُهُ؟ قَالَ: إِنَّ وَعْدَهُ نَهَارًا فَكُلَّ النَّهَارِ، وَإِنْ وَعْدَهُ^(٢) لَيْلًا فَكُلَّ اللَّيْلِ^(٣).

وسُئِلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِذَا وَعَدْتَهُ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ فَانْتَظِرْهُ إِلَى وَقْتِ صَلَاةٍ أُخْرَى^(٤).

وفي الحديثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعِدَّةُ دَيْنٌ وَاجِبٌ»^(٥).

قال القرطبي: أَيُّ فِي أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصَافِ الصَّدِيقِينَ^(٦).

وقال المُحَقِّقُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَمَا ذَكَرْتُهُ فِي كِتَابِي: «غَايَةُ الْمُتَهَيِّ» فِي الْفَقْهِ: إِنَّ الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ يُلْزَمُ مِنْ حَيْثُ الْوُجُوبُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُلْزَمُ مِنْ حَيْثُ الْحُكْمُ بِهِ، بِمَعْنَى: أَنَّ مَنْ وَعَدَ أَحَدًا بِشَيْءٍ وَامْتَنَعَ مِنَ الْوَفَاءِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يُلْزِمَهُ بِذَلِكَ خِلَافًا بَعْضَهُمْ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ التَّحْرِيمُ فَيَحْرُمُ خُلْفُ الْوَعْدِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ^(٧) لَمَّا يُلْزَمُ

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥).

(٢) فِي (ل): «أوعده».

(٣) انظر: «اللباب» لابن عادل (١٣ / ٨٢).

(٤) انظر: «اللباب» لابن عادل (١٣ / ٨٢).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٣٥١٤)، وَالْقُضَاعِيُّ فِي «الشَّهَابِ» (٧) مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٤ / ١٦٦): فِيهِ حِمْزَةٌ بَنِ دَاوُدَ ضَعَفَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ. اهـ. وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي «تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ» (ص ٦٥٧): سَنَدُهُ فِيهِ جِهَالَةٌ.

(٦) انظر: «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥).

(٧) مِنْ قَوْلِهِ: «خِلَافًا لِبَعْضِهِمْ..» سَقَطَ مِنْ (ت).

عليه مِنَ الْكَذِبِ^(١)، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ ﴿٣٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]^(٢).

والدَّلِيلُ على الوُجُوبِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وآياتٌ أُخَرُ وأَحَادِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَحَلُّ ذِكْرِهَا.

وفي «تفسير القرطبي»: والعَرَبُ تُمَدِّحُ بِوَفَاءِ الْوَعْدِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأُمَمِ - وَذَكَرَ الشُّعْرَاءُ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَفِي نَثَرِهِمْ - وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ حَيْثُ يَقُولُ:

مَتَى مَا يَقُلْ حُرٌّ لَصَاحِبٍ حَاجَةٍ: نَعَمْ، يَقْضِيهَا، وَالْحُرُّ لِلْحُرِّ ضَامِنٌ^(٣)
وَقَوْلُ الْآخِرِ:

إِذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ: نَعَمْ، فَاتَّمِمْهُ فَإِنَّ نَعَمَ دِينَ عَلَى الْحُرِّ وَاجِبٌ^(٤)
تَفْزُ بِجَزِيلِ الْأَجْرِ وَالْحَمْدِ وَالثَنَّا فَبَادِرْ بِإِنْجَازٍ لِمَا أَنْتَ وَاهِبٌ
وَقَوْلُ الْآخِرِ:

تَحَنَّنْ عَلَيْنَا هَٰذَاكَ الْمَلِكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا
وَأَنْجِزْ لَنَا الْوَعْدَ يَا سَيِّدِي فَإِنَّ لِكُلِّ سُؤَالٍ نَوَالًا

(١) جاء بعده في (ت): «فيحرم خلف الوعد بلا استثناء». وهو في (ل) متقدم.

(٢) انظر: «غاية الممتهى» مع شرحه «مطالب أولي النهى» (٦ / ٤٣٥) وما بعدها.

(٣) الذي في «تفسير القرطبي» (١١ / ١١٥): والحر للوأي ضامن. ومثله في «التمهيد» لابن عبد البر (٣ / ٢٠٧)، ونسبه لسابق بن خديم. وقال: والوأي: العدة.

(٤) انظر: «الموشى» (ص ٤٣)، و«العقد الفريد» (١ / ٢٠٥)، و«بهجة المجالس» (ص ٧٠)، والبيت الآتي ليس فيه، وجاء بعده عندهم:

ولا فقل:

لئلا يقول الناس إنك كاذب

لا تسترح وترح بها

وَمِنْ كَلَامِ الْبُلْغَاءِ:

الوفاء بالمواعيد من أوصاف الكرام.

و: صدق الوعد يحب في المرء الأنام.

بصدق الميعاد تذكّر الكرماء وتسر الندماء وتفتخر العظماء.

من اتصف بالوفاء بالوعد نال ثناء جميلاً وأجرأ جزيلاً، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا

بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

من كان صادق الوعد كان بين الناس رخصاً، وكان فعله مرضياً قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ كُنَّا صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وقلت: هل تمدح الكرام إلا بصدق المواعيد، وهل كانت أيام الاجتماع بهم

إلا لذلك عيداً.

إذا وعدت وعداً فأَمْضِهِ إن قدرت على إَمْضَائِهِ، وإِيَّاكَ والاعتذار مع قُدرتكَ

على قَضَائِهَا، وإن لم تقدر فاعتذر تَظَفَّرَ مِنَ السَّائِلِ بِحُسْنٍ^(١) شكره وثنائه.

من سُئل فوَعَدَ فحق عليه الوفاء لمن واعد، ومن وعد بلا سُؤالٍ كان الوفاء في

حقه أكَدَ.

الوعد بالكلام للسائل حسن، والوفاء بالفعال للمسؤول أحسن، فالسائل ينتظر

جبراً، والمسؤول يدخر أجراً.

الوعد حسن لا سيما من حسن، والإنجاز أحسن لا سيما إن أحسن من كان

(١) «بحسن» ليس في (ت).

اسمُهُ «حَسَن»^(١)، وَوَجْهُهُ حَسَنٌ، فَاَلْمُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ فِعْلُهُ «حَسَنٌ»^(٢)، فَإِنَّ الْمُنَاسِبَةَ مَطْلُوبَةٌ وَالْمَشَاكِلَةُ مَحْبُوبَةٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدْبَاءِ: الْوَعْدُ وَجْهٌ، وَالْإِنْجَازُ مُحَاسِنُهُ^(٣).

قَصَدَ ابْنُ السَّمَاكِ وَاعْطَى الْعِرَاقَ رَجُلًا فِي حَاجَةٍ، فَتَوَلَّى، فَقَالَ لَهُ: مَا قَصَدْتُكَ إِلَّا وَأَنَا أَحْسِنُ فَيْكَ الظَّنَّ، وَأَصْوَعُ فَيْكَ الثَّنَاءَ، وَأَتَخَيَّرُ لَكَ الشُّكْرَ، وَأَمْشِي إِلَيْكَ بِقَدَمِ الْإِجْلَالِ، وَأَكْلِمُكَ بِلِسَانِ التَّوَاضُعِ، فَهَلْ أَصَبْتُ فِي ذَلِكَ أَمْ أَخْطَأْتُ؟ فَأَفْجَمَ الرَّجُلُ وَقَالَ: بَلْ أَصَبْتَ. وَقَضَى حَاجَتَهُ وَسَأَلَهُ الْمُعَاوَدَةَ^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(٥).

وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُهُمْ حَيْثُ قَالَ:

شُكْرًا لِفَضْلِكَ شُكْرًا لَسْتُ أَحْصُرُهُ شُكْرًا جَزِيلًا يَفُوقُ الْعَدَّ أَنْفَاسًا
وَكَيْفَ لَا وَرَسُولُ اللَّهِ قَالَ لَنَا لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ

(١) كَذَا فِي (ت) وَ(ل).

(٢) كَذَا فِي (ت) وَ(ل).

(٣) انظر: «نثر الدر في المحاضرات» (٣/ ٢٨٦)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ٢٨٦).

(٤) انظر: «البصائر والذخائر» (٤/ ١٣٠ - ١٣١)، و«نثر الدر» (٤/ ١٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (١١٧٠٣)، وعبد بن حميد (٨٩٢)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٧١)، و«اصطناع المعروف» (١٢٩) من طريق ابن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف لضعف ابن أبي ليلى وعطية العوفي.

وأخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (٢٠٦٩)، وأحمد (٨٠١٩) من حديث أبي هريرة. وإسناده صحيح.

وقال الإمام مالك رحمه الله: مَنْ صَدَقَ فِي حَدِيثِهِ مُتَّعَ بِعَقْلِهِ، وَلَمْ يُصِْبْهُ مَا يُصِيبُ النَّاسَ^(١).

وقال: إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلَا تَحْبِسْهُ فُوقًا حَتَّى تُمَضِّيه، فَإِنَّكَ لَا تَأْمُنُ مِنَ الْأَخْذَاتِ^(٢). وَاجْتَهِدْ فِي الْخَيْرِ، وَادْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الشَّفَاعَاتُ زَكَاةُ الْمُرُوءَاتِ^(٣). وَمَنْ لَا يُحِبُّ الْعِلْمَ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَا يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ صِدَاقَةٌ^(٤).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: بَادِرْ كُلَّ خَيْرٍ هَمَمْتَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْرِضَ لَكَ عَائِقٌ.

وَذَكِّرْ عِنْدَهُ الْإِخْلَاصَ وَالصِّدْقَ، فَقَالَ: بِهَذَا ارْتَفَعَ الْقَوْمُ^(٥).

جَلَسَ اسْكَنْدَرُ يَوْمًا فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ، فَمَا رُفِعَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، فَقَالَ: لَا أَعِدُّ هَذَا الْيَوْمَ مِنْ أَيَّامٍ مُلْكِي^(٦).

وقال بعض الأدباء: لَيْسَ شَيْءٌ أَلَدُّ وَلَا أَسَرُّ مِنْ عَزِّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالظَّفَرِ بِالْأَعْدَاءِ، وَتَقْلِيدِ الْمِنِيِّ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ نَصِيبُ الرُّوحِ وَحِظُ الدَّهْنِ وَقِسْمَةُ النَّفْسِ^(٧).

(١) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٠٠٨)، وانظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٧).

(٢) انظر: «ترتيب المدارك» للقاظمي عياض (٢/ ٦٥). ومعنى: «فوقاً» أي: برهة من الزمن.

(٣) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٢٠٦).

(٤) انظر: «تهذيب الأسماء» للنووي (١/ ٥٤).

(٥) انظر: «مناقب أحمد» لابن الجوزي (ص ٢٦٧).

(٦) انظر: «المستطرف» (ص ٩٩).

(٧) انظر: «المستطرف» (ص ٩٩)، و«ربيع الأبرار» (٥/ ١٧٧).

وقال بعضُ العلماء: يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ ذَا هَيِّئَةٍ، إِذَا أَوْعَدَ، وَوَفَاءٍ إِذَا وَعَدَ.

وقال الشَّعْبِيُّ: قَدِمَ زِيَادُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْكُوفَةَ، فَذَنُوتُ مِنَ الْمِنْبَرِ لِأَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ شُسِّنَا وَسَاسَنَا السَّائِسُونَ، وَجَرَّبْنَا وَجَرَّبَنَا الْمُجَرَّبُونَ، فوجدنا هذا الأمرَ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا شِدَّةٌ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ، وَلِينٌ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ، وَإِنِّي لَا أَعِدُّكُمْ خَيْرًا وَلَا شَرًّا إِلَّا وَفَيْتُ بِهِ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذِبَةٍ فَلَا وَايَةَ لِي عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرُ بِهِ نَفْسِي وَأَهْلِي، فَمَنْ حَالَ دُونَ أَمْرِي ضَرَبْتُ عُنْقَهُ، يَعْنِي: بِالسَّيْفِ^(١).

بَلَغَ بَعْضُ الْمُلُوكِ حَسْنَ سِيَاسَةِ مَلِكٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ مَبْلَغًا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ فِي زَمَانِكَ، فَأَفِدَنِي الَّذِي بَلَغَكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنِّي لَمْ أَهْزِلْ فِي أَمْرٍ وَلَا نَهَيْ، وَلَا وَعَدٍ وَلَا وَعِيدٍ، وَأَوْدَعْتُ الْقُلُوبَ هَيْئَةً لَمْ يَشْبِهَا مَقْتُ وَوُدًّا لَمْ يُشْبِهُهُ كَذِبٌ^(٢).

وَرُوي: أَنَّ حَاتِمَ الطَّائِيَّ أَنَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ وَاسْتَشْفَعَ عِنْدَهُ بِفَضْلِهِ فِيهَا، فَقَالَ حَاتِمٌ: مَرَّحِبًا بِالَّذِي تَوَسَّلَ بِنَا إِلَيْنَا وَقَضَى حَاجَتَهُ.

(١) انظر: «نثر الدر» (٥ / ١٥).

(٢) انظر: «نثر الدر» (٤ / ١٧٧)، و«الجلس الصالح الكافي» (ص ٥١٣).

خاتمة

إمام الصديقين يوسف، وإمام الملوك سليمان، وإمام أهل المواعيد إسماعيل، وإمام المخلصين موسى، وإمام الزاهدين عيسى، وإمام أهل البلاء أيوب، وإمام من صبر على فراق محبوبه يعقوب، وإمام الشهداء يحيى بن زكريا، وإمام أهل الخلّة والمحبة إبراهيم، وإمام كل من صبر على أذى قومه نوح^(١)، ومحمد ﷺ، وإمام الجميع، فهو إمام المتقين، وحبيب رب العالمين، فينبغي لكل من اتصف بوصف من أوصاف هؤلاء السادة الكرام أن يقتدي بهم في أقوالهم الرضية، وأفعالهم المرضية، عليهم الصلاة والسلام، ومن اقتدى بنبينا ﷺ فقد اقتدى بالجميع، وفاز بالجناب الرفيع، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] (٢).

(١) قوله: «وإمام كل من صبر على أذى قومه نوح» من (ل).

(٢) جاء في خاتمة النسخة (ل) ما نصه: «تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ووافق الفراغ من كتابة هذا الكتاب يوم الخميس المبارك الموافق لثاني عشر ذي القعدة الحرام، من شهور سنة خمس وأربعين ومئة وألف، بقلم أفقر الورى وأحوجهم إلى ربّ الثرى، من في رعاية ربّه العلي، محمد يعقوب المقدسي الحنبلي بن المرحوم محمد بن المرحوم يحيى بن المرحوم يوسف والد المؤلف لهذا الكتاب، جعلنا الله وإياه من الأمنين يوم الحساب، وأدخلنا وإياه الجنة بمنّه وكرمه مع الأحياء، بجاء محمد وآله والأصحاب آمين» وكتب في هامشها: «بلغ مقابلة على خط المؤلف».

